من البلاغة إلى الاتصال
بناء البرهان في نونية أبي البقاء الرندي

أ.خيرالدين دعيش
جامعة سطيف – الجزائر

ملخص:
يروم هذا البحث مراجعة نصّ من النصوص الشعرية في التراث العربي،نصّ أبي البقاء الرندي،من حيث طاقته الإبلاغية والتوصيلية،القائمة على البرهنة والحجاج،وتوظيف عناصر الصياغة المنطقية والاستدلالية،ثم مقاربة هذه الطاقة من الوظيفة البلاغية القائمة على عناصر الأداء الفنّي والتشكيل اللغوي،بهدف كشف الشقّ الإقناعي والبرهاني المتواري خلف تأثير الوظائف الفنّية والجمالية للنصّ .

Résumé
Cet exposé (Essai) traite une approche objective d' un des textes poétique arabes , celui de ABU – EL BAKA EL RANDI , approche du point de vue de sa communicabilité,
Basé sur l'argumentation et l'emploi d'éléments d'analyse logique et conséquente

يقول الجاحظ : ((مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هوالفهم والإفهام ،فبأي شيء بلَغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى ،فذلك هوالبيان في ذلك الموضع)) . 1

إنّ هذه المقولة تعود بنا إلى فهم المنظومة البلاغية العربية القديمة في شقها الاتصالي ،ومراجعة المستويات التي تهتم بالأداء الكلامي وفق التعرّف على المقامات وضبطها .

ولم تجد البلاغة العربية القديمة ،من خلال أقطابها ،إلاّ علم البيان تربة خصبة لتدارس الفعل الاتصالي ووظائف اللغة الإبلاغية والإرسالية ،ضمن البحث في مقتضى الحال ومقام السامعين وعناصر الأداء الكلامي عندهم . ثمّ إنّه لم يحظ وجه بلاغي بالبحث والمدارسة مثل ما حظي به القائل في مقاصده وتنويعات

UNIVERSITE SETIF2

كلامه،والسامع في أحواله ومقتضيات تلقيه للكلام والخطاب،في سياق الإبانة عن المعاني والإفصاح عن الأغراض الكلامية المحدّدة لأنماط تشكيل الكلام ،يقول جميل عبد المجيد :

((لم يكن لمبدأ بلاغي من الإجلال عند البلاغيين العرب والسيطرة على تفكيرهم مثل مبدأ البيان ،فهو لديهم جوهر البلاغة والوظيفة الأساسية لكل اتصال لغوي)).2

والحقيقة إنّ هذا البحث لا يروم التعريف بالبلاغة ولا بالبيان ،بقدر ما يجتهد في مسعاه إلى تخطي القراءة البلاغية التقليدي لنصوص شعرية تراثية من شعرنا العربي،بل إنّ بعض النصوص طوّقتها المعيارية والنمطية في تطبيق بعض المقاييس البلاغية عليها ،حتى غدا النصّ معها أرضا مُسيَّجة لا يمكن وطئها إلاّ من خلال تلك الفتحات ،وأملت عليه بذلك مقولة الزمن المحايث ،على حدّ تعبير هيدجر ،(الآن وهنا) . والواقع أنّ الشعر العربي القديم ما يزال يمارس كينونته وحضوره الأنطولوجي في معترك الاتجاهات النقدية المعاصرة ،وبعيدا عن أيّ وصاية فكرية أوتاريخية تلزمه (الآن وهنا) ،إنّه النصّ / الإنسان ،وليس نصّ الإنسان ،وهوالنصّ / الزمان ،وليس نصّ الزمان ،وهوالنصّ / المكان ،وليس نصّ المكان ،إنّه كلّ الماهيات وكلّ الأبعاد الوجودية الممكنة ،عبر تحققه وتفعيله الممكن .

أقول ،إنّ البحث يعود إلى استقراء إحدى الوظائف البلاغية التي لم تقف المنظومة البلاغية العربية تحديدا وممارسة وكشفا مثل ما وقفت عندها ،وهي الوظيفة الإبلاغية والتوصيلية للخطاب ،التي ترنوإلى الإقناع واستمالة السامع عن طريق البرهنة وبناء الحجّة ،غير أنّها وظيفة قاصرة في أبعادها ومراميها بسبب انحسارها بين حدود أغراض بلاغية معينة لم تتجاوزها وتوسّع من دوائرها ،ففقدت معها بذلك مزية البحث في مسيل معرفي آخر متفرّع من مظانّها وأصولها،وهو الحجاج والبرهنة .

لقد جاء في اعتقاد البلاغة العربية القديمة العكوف على غرضين بلاغيين عكوفا ملّحا ،تمليه حدود ما هومتعارف عليه تأليفا ونقدا ،وقواعد ما أرسى عليه الإرسال والاستقبال في تلك المنظومة ،فلم تكن الأغراض والمقامات تتعدى سياقات المدح والهجاء ،وما تشكّل بشكليهما من تحسين وتقبيح ،أوتعظيم وتحقير ،أوتهويل وتهوين،خاصة ما تعلّق منها بفنّ الخطابة ،يقول محمد العمري : ((وقد يسهل القول إنّ الخطابة العربية هي خطابة منافرة ومفاخرة ،ميالة إلى المدح والهجاء ،ولم تعتمد

الحوار الهادئ القائم على الحجة إلاّ في مناسبات محدودة ،ولذلك ينتظر أن يكون عنصر الحجاج والبرهنة أضعف عناصر بنائها)) . 3

إننا نفهم من وراء كلّ ذلك فعل الوظيفة الإبلاغية والتوصيلية غير القائمة على الحوار الهادئ ،بأنها وظيفة استمالة وإقناع تنشد التأثير في نفس المتلقي وعواطفه،وتدفعه إلى الاستجابة الانفعالية المفتقرة إلى عناصر المنطق وآليات التحليل فيه. فالتأثير إذن ،لا يقوم على الإقناع المنطقي وإقامة الدليل بقدر ما يحاول دغدغة النفـس البشرية في مشـاعرها وأحوالها الفطرية ،ولم يكن النظم ببعيد عن تلك الأحوال من الخطابة ،وقد أشار ابن قتيبة إلى الناظم وهويقف باكيا شاكيا مستعطفا القلوب مستميلا للأسماع ،يقول : ((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار ....فبكـى وشكا ،وخاطب الربع واستوقف الرفيق .... فشكا شدة الوجد وألم الفراق،وفرط الصبابة والشوق ،ليميل نحوه القلوب ،ويصرف إليه الوجوه ،وليستدعيَ به إصغـاء الأسماع إليه ...)) 4 . فالشعر بذلك نحا منحى الخطابة في أدائها ووظائفها التعبيرية ،إلاّ النزر القليل من القصائد ذات الطابع الإقناعي القائم على البرهنة والحجاج ،وهـي قصائد متأثرة في مجملها بالاتجاهات الكلامية المختلفة التي ملأت الحياة السياسـية فـي عصور بني أمية وبني العباس ،حين اشتد الصراع واحتدم النقاش بين الفرق الإسلامـية والمتكلّمة والمناطقة في أشعارهم ومناظراتهم ،غير إنّ المقامـات التي يفترض أنّـها حجاجية بقي يغلب عليها الطابع الانفعالي والاندفاع النفسي المتأجّج الذي يحور مسار البرهنة إلى المغالطات واللعب على أحوال منطق مُموَّه ،يقول جميل عبدْ المجيد : ((فقد نُظمت القصيـدة العـربية القديمة ــ أكثر ما نُظمت ــ للمفاخرة والمنـافرة ،والمـدح والهجاء ،والتنصل والاعتذار ،والحثّ والإنهاض،والدعاية والترويج)) 5 .

لقد أتى على لسانيات الخطاب حيـن من البحث في هذا المجـال أن توجد للحجـاج والبرهنة قواعدهما وصيغهما اللازمة ،ضمن ما أصطلح عليه **بالبلاغة الجديدة أوالخطابة الجديدة** ،التي وفرت جهدا كبيرا للدراسات التطبيقية لنصوص حجاجية باللغة الأجنبية ،ما ترك الساحة النقدية العربية تفتقر لمثل هذه الدراسات ،يقول الحواس مسعودي :((والآن تتوفر تطبيقات على نصوص مختلفة ولكن للأسف جلّها باللغات الأجنبية ،إذ تفتقر العربية لهذا النوع من الدراسات رغم تنوّع وثراء نصوصها)) 6 .

ولعلّ اهتمام النقد الغربي بهذا الحقل (البلاغي / اللساني) هوالذي غذى مقدرة البحث في النصّ الحجاجي وتطوير آليات تحليله ونقده ،وقد برز مع ذلك جملة من البحـــاثة والنقاد في هذا المجال على رأسهم **جان ميشال آدم** j .m Adam و**بيرلمان** Perelman من خلال كتابه : الخطابة الجديدة new rhetoric . كما أنّه لا يعني هذا بأيّة حال من الأحوال تقاعس البلاغة العربية القديمة عن مثل هذا الدرس البلاغي ،خاصة ما قدمّه الشيخ ابن وهب في كتابه البرهان والسكاكي في مفتاح العلوم والجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز .

يعدّ النص البرهاني وكذا الحجاجي أهمّ المجالات اللغوية التي انشغل بها علم النصّ الحديث ،إلى جانب نصوص أخرى مثل النــصّ الحواري والنــصّ الوصفي والنــصّ السردي ،وإذا نحكم بأهمّية النصّ الحجاجي والبرهاني فذلك لأنّ النصوص في مجملــها وعلى تنوعها لا تكاد تخلومن الوظيفة البرهانية للغة ،وهي الوظيفة السابعة التي أضافها إلى وظائف اللغة الستّ التي كان قد حدّدها " **ياكبسون** " . أوقل إنّ **Adam**" **ميشال** الوظيفــة البرهانية تكاد تكون الأكثر تحميلا في لغة التخاطب والتواصل قصـــد الإقـــناع والبرهنة : ((إنّنا عندما نتكلم نشير إلى عالم (حقيقي أوخيالي) ونصوّره (الوظـــيفة الوصفية) ،لكننا نتكلم أغلب الأحيان ونحن نسعى إلى إقناع المخاطَب وحمله على أن يقاسمنا رأيا أوتصوّرا حول موضوع معيّن ،وبعبارة أخرى ،فإنّنا نتكلم أغلب الأحيان من أجل البرهنة)) 7 .

<u>نموذج الإسناد البرهاني :</u>

يتشكّل المقطع البرهاني بالصورة التالية :

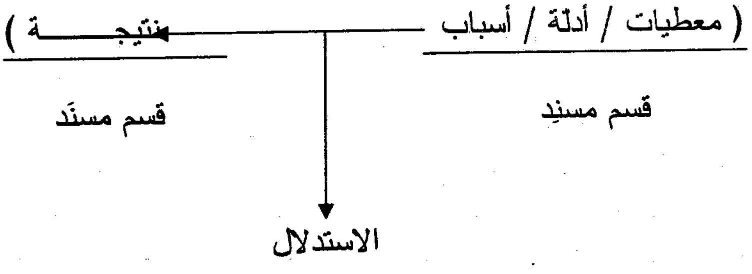

UNIVERSITE SETIF2

فالنموذج القاعدي للبرهنة يتمثل في **الربط** بين معطيات ونتيجة ،وهويشبه إلى حدّ ما النموذج الصوري في المنطق الأرسطي (مقدمة كبرى + مقدمة صغرى = نتيجة) وكذا المربع السيميائي الذي وضعه " غريماس " ،كما أنّ هذا الربط بين المعطى والنتيجة يمكن وبالارتكاز Garantبواسطة **ضامن** Implicite أوضمنيا Explicite أن يكون صريحا،فتكون المعطاة ظاهرة والسند مضمرا،أما باقي العناصر Support على دعامة أو**سند** المكوّنة للمقطع البرهاني فتتأرجح بين الظهور والإضمار،وهنا يمكن أن نكشف عـــن القاعدة الاستدلالية عن طريق مراجعة الضامن والسند .

احتمال التقييد في الاستدلال البرهاني :

إنّ تطبيق القاعدة الاستدلالية ليس نتيجة حتمية يجب التسليم بها قطعا ،بل قد تكون قاعدة احتمالية فقط ،إذ قد تُدحَض العلاقة بين المعطى والنتيجة ،وهنا (كسر لأفق التوقع) الذي يحتمل البحث عن استدلالات أخرى تجيب على تشكّل العلاقة الجديدة بين المعطى السابق والنتيجة الجديدة نظرا لدخول التقييد . فالتقييد يشتغل في فضاء دلالي واسع يستوجب من المستَدِل جملة من الإحالات الاستدلالية الغائبة (المضمرة) ،وهنا بالضبط تظهر كفاءة المتلقي أوالسامع في تحليل مستويات الخطاب وتوظيف القدرة على اكتشاف العلاقة الجديدة للقضية ،يقول " فان دايك " : ((ولذلك فإنّ من أهمّ وظائف علم اللغة النصي النقدي تحليل نوع تأثير المعارف والآراء والاتجاهات بوصفها نتيجة أبنية نصية محددة ،وجعل مستخدم اللغة واعيا بأوجه الربط تلك)) **8** . وقد تظهر للمستدل أدوات لغوية جديدة تقع بين المعطى والنتيجة ،وهي أدوات التقييد التي تفترض نتيجة لم تكن متوقعة منه ،بل عليه أن يبني تصوّرا جديدا لاستدلاله يستقيم وطبيعة المعـــطى الجديد ،ويمكن أن نمثّل لهذه الأدوات بـــ : (لولا ،إذا ما ،لكن ،لوأنّ ،غير أنّه ....) .

كما إنّ العملية البرهانية لا تفترض استقطاب ردّة فعل واحدة من المتلقين والجمهور ،بقدر ما يحاول صاحب الخطاب البرهاني توقع نوعية الذين يرسل إليهم ومستوياتهم ،فيحرص على تقديم معطيات تراعي المقدرة على الفهم والتمثّل وكذا الاستدلال والعمليات الذهنية المعقدة : ((وفي هذا الصدد يجب التأكيد على أهميّة

اختيار المقدمات في عملية البرهنة ،وما من شك في أنّ المعطيات والمقدمات المختارة تفصح عن الفكرة التي يحملها المتكلّم عن تصوّرات مخاطبه))9 .

وللنموذج البرهاني شكل أخر يرد عليه ،فإذا كان الأصل فيه أن ترد المقدمة ثم تليها النتيجة بعد عملية الاستدلال ،فإنّ شكله الثاني يعرض النتيجة المتوقعة قبل عرض المقدّمة ،كأن تتأخر هذه الأخيرة على سبيل عرض الحال أوالشرح أوالتفسير ويصبح الشكل الجديد على النحوالتالي :

النتيجة ←———— المقدمة (الحجة)

الحال ↓ الشرح

(واوالحال ،لأنّ ....)

فهذا الشكل من البرهنة يسمى بالنظام العكسي أوالتنازلي ،لأنّ حركة الاستدلال فيه تقوم على الابتداء بالنتيجة ثم انتهاءً بالسبب أوالمعطى .

بناء البرهان في نونية أبي البقاء الرندي :

حظيت هذه القصيدة كعدد كبير من القصائد العربية باهتمام الباحثين والدارسين للأدب العربي ،العرب منهم والأجانب ،فقد ضمنها المقري 10 في كتابه أزهار الرياض ،وفي كتابه نفح الطيب ،كما أوردها شهاب الدين الخفاجي 11 في كتابه ريحانة الألباء ،غير إنّه نسبها إلى الشاعر الأندلسي السيد يحيى القرطبي الذي قال عنه المقري بأنه أضاف فقط إلى قصيدة الرندي عشرين بيتا لم تكن بمستوى قصيدة الرندي من الناحية البلاغية 12 . وللمحدثين أيضا دراسات متنوعة في شأن هذه القصيدة ،نذكر منهم مصطفى الشكعة 13 في كتابه الأدب الأندلسي ،موضوعاته وفنونه ،ودراسة عمر الدقاق 14 في كتابه ملامح الشعر الأندلسي وكذا رضوان الداية 15 من خلال كتابه الأدب الأندلسي والمغربي .وأما المستشرقون فقد وجدت القصيدة عندهم لفتة حسنة تجدر الإشارة إليها ،مثل ما قدمه المستشرق الروسي " كراتشوفسكي " من تعليق على الرندي بأنه نظم مرثية مشهورة في القرن الثالث عشر ،كما نوّه بقيمتها الفنية في الأدب الأندلسي 16 ،وقد تناولها "غارسيه غوميز" في كتابه الشعر الأندلسي 17 مقارنا بينها وبين رائية ابن عبدون ،فقال بأنّ النونية

UNIVERSITE SETIF2

ليست فيضا من ألم مجرّد من المنفعة الخاصة بقدر ما هي صرخة أطلقها الرندي مستنصرا المسلمين لحماية الأندلس.

والحقيقة أنّ جلّ هذه الدراسات قد اكتفت بالمعالجة البلاغية والفنّية للنصّ ،وكذا الاهتمام بالجانب اللغوي والصوتي مقاربة بالتلوينات الإيقاعية والصيغ النحوية،وهو الأمر الذي جعلني أنظر إلى النصّ من زاوية غُفْلٍ تجاوزتها الدراسات السابقة ،كما أنّ هذا لا يعـني بالتأكيد الاعتقاد الجازم بقصور تلك الدراسات ،بقدر ما كان الاعتقــاد بأنّ القصيدة تكشف بصورة صريحة عن آليات قراءتها واستراتيجيات التعامل معها ،من خـــلال ما تعرضه من مادة شعرية ودلالية صريحة أوضمنية ؛ بل إنّ القارئ لهذا النصّ يقف أمام مستويات تعبيرية وتنويعات دلالية تتجاوز محورية الرثائية المحايثة للقصيدة ،وكذا تخطي المعيارية التي قوقعت النصّ في حدود ما هوفنّــي وانفعالي يختص بالغرض الذي يصبغها رثـــاءً وبكاءً ولا يصبغها برهنة واستدلالا من أجل الإقناع والتأثير العقلي المستوجب لردّة فعل واعية:((تتحقق الاستمالة – في الأساس – باستدلال منطقي قابل للاختبار من قبل المتلقي،ليأتي اختياره اختيارا واعيا عاقلا)) **18** .

تقوم القصيدة في عمومها على تقديم مادة دلالية مشحونة بطاقة تأثير واستمالة عقليين ،مع فتور نسبي في درجة الاستمالة النفسية الانفعالية ،وهوما يكشف عن اكتساح الجانب الإقناعي فيها بالارتكاز على البرهنة والعمليات الاستدلالية الممكنة،هذه العمليات التي تقع في مستوى أنماط مختلفة للبرهنة من خلال ما هوْعقلي وديني وخبراتي متعلّق بتجربة المستدل ومرجعياته الثقافية واللغوية والمعرفية وغيــرها من المرجعيات التي يرتــكز عليها أثناء الاستدلال . والحقيقة أنّ هذه الأنماط المختلفة للبرهنة تشتغل فـــي فلك ما هوجدلـــي أوفي ما هوخطابـــي ،لذلك فإنّ الحجاج في النصّ لا يعدوأن يكون إلاّ حجاجا جدليا أوحجاجا خطابيا ؛ فالأول يستند إلى عرض المسلمات للوصول إلى النتــائج التـــي تفترضها تلك المسلمات ،بينما يرنوالثاني إلى إقناع المتلقي من خـــلال عرض مقدمـــات ومعطيات للوصول إلى نتائج ،ولعــلّ الفرق يكمن في أنّ الثانـــي تتصاعد فيـــه العملية الاستدلالية لدى المتلقي فلا يكون الربط بين المعطيات وبين النتائج ربطا مباشرا ،بقدر ما يخضع إلى جملة من القياسات والإحالات المرجعية التي تطمئن بصحة النتيجة وسلامتها مقابلة بالمعطى أوالمقدمة . بينما يكون الربط بالنسبة للحجاج الجدلي ربــطا مباشرا يحتكم فيه المستدل إلى التسليم بالمعطى وكذا

الوصول إلى النتيجة دون الإحالة أوالرجوع إلــى السند والضامن ؛ هذا النمط من الحجاج يتكشّف من أول بيت في نونية أبــي البقاء التــي مطلعها :

لكــلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ فــلا يُغرُ بطيب العيش إنسانُ

فــالشاعر ابتدأ بتوصيف الأشياء في كلّيــتها وعمومها على سبيل تضــمين الاستــثناء والتخصيص في الحكم الذي أصبح خصوصية لتلك الأشياء ،فلا يقــوم الاستدلال بالنسبة للكلّ إلاّ وقد حصل منطقيا الاستدلال بالنسبة للجزء الذي يمظهره القارئ ويطفوبه إلــى السطح عبر العملية الاستدلالية التالية :

كلّ شيء في الحياة ناقص ← ما أفعله وأتمّه ناقص

مقدمة / مسلمة

حاصل المسلمة

فالحاصل الذي يمكن اعتباره نتيجة - بلغة الحجاج والبرهنة- إنّــما هــومُتضَــمَن داخــل المسلمة أوالمقدمة التي افترض فيها الشاعر أنّ (كلّ ،جميع ،ما من شيء) يفعله الإنــسان أويتمّه إلاّ وأخذ حكم الناقص ،لذا فالقارئ لا يحــيل القضية إلــى الاستــدلال والبحث في السند والضامن ،ما دام السلم البرهاني يقتضي أنّ حكم الكلّ يسقط على الجزء المتفرّع منه منطقيا ،إنّما لا يعدوالأمر إلاّ استنتاج حكم الجزء من حكم الكلّ .

والواقع أنّ الشاعر لم يرد بهذا التوصيف إلاّ الإعلان عن بداية مشروع نصّه،القائم على بلاغة الخطاب الإقناعي والبرهاني ،معتقدا بما أوعزته المنظومة الإبداعية وكذا النقدية من أهميّة للمطلع ومستهل القصيدة ،وهوبذلك يحاول أن يوجّه نصّه الوجهة التي ترتضيها الغاية والمقصد عنده منذ البداية ،ومنذ آمن بأنّ للشعر وظائف تتعدى الانفعالية والإخبارية إلى ما يقتضيه المقام الذي أنشئ من أجله النصّ،يقول شكري عياد في تحقيقه لكتاب أرسطو(فنّ الشعر) : ((الشعر صناعة ترمي إلى اكتساب تسليم الغير بما نقول ،وألحقوه بالجدل والخطابة)) **19** .

ويستطرد الشاعر في بناء صيغة البرهنة التي يرتكــز عليها في النصّ ،حين يعــيد توظيف صيغة الخطاب القائل بـــ (الكلّ) في البيت التاسع ،قوله :

أتى على الكلّ أمر لا مردّ له حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا

فالعودة إلى توظيف الكلّ هي عودة بالقارئ إلى جدل البيت الأوّل القــائم على التسليم ،وإيصال النتيجة بمقدّمتها مباشرة دون الاستدلال والإحالة على المرجعيات ،فما أتى على الكلّ لا يحتمل التخصيص والاستثناء ،بقدر ما يتضمن إقناع المخاطَب المقصود بأنّه جزء من هذا الكلّ المخصوص بسقوط الأندلس وضياع مجدها ويعــود بذلك القيــاس إلــى صورته التي ابتدأ بها :

أتى على الكلّ أمر (قضية كبرى).
المخاطَب المقصود واحد من الكلّ (قضية صغرى).

أتى على المخاطَب المقصود أمر (نتيجة)

فصورة القياس هنا تعكــس صورته فــي القياس الأوّل الذي يفترض الانتقال من مقدّمة (مسلمة) إلــى نتيجة ،دون الارتكــاز على سند أوضــامن . وتتطعمّ صيغة البرهنــة في هذا البيت بما يتواظف دلاليا مع دلالة (الكلّ) في مفهومه ،من خــلال النفي الجــازم والمطلق في قوله (لا مردّ له) وهوالتوظيف الذي لا يوحي بأيّة نسبية أوتقريب في الحكم كأن نقول (قد يُردُّ / فيه ردٌّ / يمكن أن يردّ ...) ،بل لا تحمل دلالة هذا النفي إلاّ المطلق من الحكم والجزم به ،وقد حاول الشاعر أن يؤكده في البيت الرابع عشر : (وما لما حلّ بالإسلام سلوان) .
ومع أنّ النصّ لا يحتمل في أدائه الإقناعي والإيصالي أسلوب الحجاج الجدلي بالصورة التي يموت معها النصّ فنّيا وجماليا ،إلاّ أنّ الوظيفة الضاغطة فيه بلاغيا تحصره داخل إطار ما هوبرهاني وحجاجي بالدرجة الأولى ،ولا يكون التأويل واستقراء النصّ جماليا إلاّ في حدود ما تمنحه تلك الوظيفة الضاغطة ،يقول جميل عبد المجيد : ((وبهذا يمارس الجدل مع المتلقي نوعا من القسر والقهر)) **20** .

وشبيه بالبيتين السابقين ساق الشاعر البيت العشرين من القصيدة ،حتى لكأنّه يبدوأنّ هذه الأبيات الثلاثة هي بمثابة المفاصل النصية التي تضمن التعالق بين وحداته ،وتحفظ بذلك مسار الحجاجية فيه ،يقول في البيت العشرين :

قواعد كُنَّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبــق أركانُ

إنّ المشابهة مع البيتين السابقين لا تكمن في الصيغة الدلالية للتركيب بقدر ما تكمن في صيغة عرض هذا التركيب ،وهي صورة الحجاج الجدلي الذي يترجم البيت إلى :

كلّ بلد يبقى ببقاء أركانه (قضية كبرى) .

الأندلس بلد (قضية صغرى) .

الأندلس يبقى ببقاء أركانه (نتيجة) .

فالشـــاعر إنّما أراد استصراخ المسلمين لإنقاذ هذا البلد عبر تصعيد الوظيفة الإقنـــاعية وتفـــعيل التجاوب العقلي القـــائم على الفهم والإدراك ،فضلا عن الاستثـــارات النفســية والانفعالية التي تشكّل الشقّ الثاني لهذا النصّ ،فزوال الأندلس ليس زوالا نفســيا نحــسّه ونشعره ،بقــدر ما هوزوال من الذاكرة ومن الموروث ومن التـــاريخ ومن الوجود ،وهوما قصده الشاعر نحومتلقيه بمحاولة استقطاب استجابته العقلية .

وينفتح النصّ على جملة من الاستدلالات الحجاجية في سياق فهمه وإدراكه،فهوفي عمومه ،كما سبقت الإشارة ،ذومقام حجاجي برهاني لا يتجاوز الوظيفة الإمتاعية والجمالية ،لأنّه ببساطة نصّ شعري له مقوماته الفنيّة والأدبية،وهوبذلك يستقيم ومقولة " هوراس" في تعريفه للشعر : ((هوذلك الكلام المفيد الممتع)) . والقصيدة في حقيقتها شيء من هذا الكلام المفيد بما تقدّمه من إوالية برهانية تمسك النصّ من أوّله إلى آخره ،وتجعله يشتغل ضمن نسق مرجعي واحد هوفي الغالب النسق المرجعي العقلي القائم على عناصر الفهم والتحليل والإدراك والاستدلال ،ومن ذلك أنّنا نقرأ جلّ أبيات هذه القصيدة ضمن هذا النسق ونحيلها على هذا الجهاز المستدل لكشف علاقات البرهنة والحجاج فيه . وخذ إليك

بهذه الأبيات التي أوردها الشاعر على أنّها من باب الحجاج الخطابي الذي يستند دائما على البحث في المرجعيات والعودة إلى اختبار العلاقة التي تربط المعطى بنتيجته بمراجعة السند والضامن ،من ذلك قوله :

هي الأمور كما شاهدتها دُوَل   مَن سرّه زمن ساءته أزمانُ

فالبيت يكشف عن صورة استدلالية تمتحن المخــاطَب في مدى تلقيه للخطاب حجــاجا ،وكذا مقدرته على الاقتناع بحسب مقدرته على التحليل وبربط العلاقات الممكنة ،فيصبح الاستدلال معروضا أمامه بالشكل التالي :

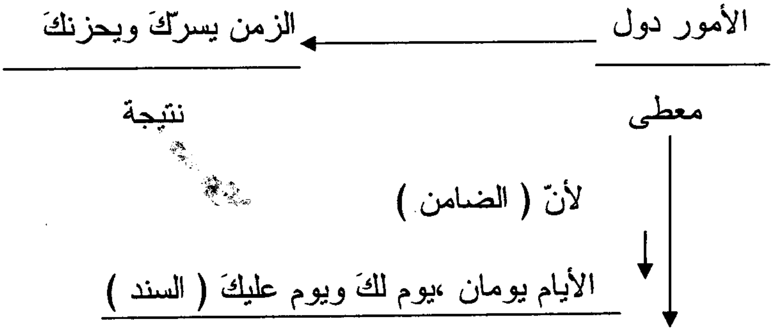

قاعدة استدلالية

فالاستدلال هنا يشتغل في فضاء دلالي واسع ،بحيث يُخرج القضية من السياق اللغوي إلى السياق المرجعي الذي تحيل عليه القضية دلاليا ،وهنا بالضبط يبدأ المتلقي البحث عن القاعدة التي يحتكم إليها في صحة القضية أوبطلانها ،يقول عبد القادر بوزيدة : ((إنّ القارئ ،خلال عملية القراءة ،يحاول أن يتصوّر قدر الإمكان كيفية تنظيم النصّ بالارتكاز على استراتيجيات يتذكّر أنّها كانت فعالة ومفيدة خلال تجربته السابقة)) **21** . كما أنّ الشاعر يبدي نيّة ضمنية في إيصال متلقيه إلى القاعدة الاستدلالية ويساعده بذلك على مراجعتها في قوله (كما شاهدتها) أي كما شاهدها القارئ والمتلقي في حياته اليومية التي تسرّ زمنا وتسيء أزمانا ،وهوما يكشف عن المقصدية المتوارية خلف التشكيل اللغوي

والأداء الأدبي .

ثم ينزع النصّ إلى كشف مثل هذه القضية في البيت الثالث الذي يُحَمله الشاعر وظيفة المعطى أوالسبب قوله :

وهذه الدار لا تبقي على أحد   ولا يدوم على حال لها شانُ

فالبيت هنا يبدوفي علاقته مع الأبيات التي تليه مباشرة كأنّه السبب الذي ساق الأبيات الأخرى في شكل نتائج ،فنقول مادامت الدار الدنيا لا تبقي على أحد فإنّ من نتائجها الأبيات التالية :

أين الملوك ذووالتيجان من يمن   وأيــن منهم أكـــاليل وتيجـــانُ
وأين مـــا شـــاده شدّاد فـــي إرم   وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ
وأين ما حازه قارون من ذهب   وأين عـــــاد وشدّاد وقحطانُ

ويصبح من الممكن إدراج العلاقة ،تبعا لما مضى ،ضمن السلم الحجاجي القائل بربط السبب بنتيجته وتحوير الصورة إلى شكلها التالي :

وهذه الدار لا تبقي على أحد ←—— أين الملوك / أين ما شاده / أين ما حازه ؟

معطى / سبب   نتيجة

↓

لأنّ كلّ من عليها فان (الضامن والسند)

فالأبيات : السادس والسابع والثامن هي تحصيل ما تفعله دار الفناء ،فلا تبقي على أحد كما ورد في البيت الثالث من القصيدة ،ويقف القارئ أمام هذه القضية موقف المستدل الذي يبحث عن منطق العلاقة بين ما جاء في البيت الثالث وما ورد في الأبيات التي تليه ،حتى يغدوبه الاستدلال إلى قاعدة (كلّ من عليها فان ،فإنّكَ ميّت وهم ميّتون ،كلّ نفس ذائقة الموت) .

كما أنّ نصّ القصيدة ،إلى جانب النمطين الحجاجين السابقين ،يقف على استخدام آلية أخرى من آليات الإقناع والمحاجة يمكن أن نستقرئ توظيفها بين البيت والأخر ،وهي آلية القياس أوالتمثيل أوالمشابهة كما يحلوللبعض أن يصطلح عليها ،يقول جميل عبد المجيد : ((وتقوم كثير من المحاجات على تقنية التمثيل ،إذ

يكون موضوع بحثها كيف أنّ فكرة ما تشبه فكرة أخرى ..)) 22 . ويقوم التمثيل على رصد الخصائص المشتركة بين الممثّل والمُمثّل له ،أوبين الموقف وشبيه الموقف ،أوبين الصورة ومثيل الصورة ،إلى ما ذلك من الحالات التي تستقيم وهذا القياس ،بحيث يصبح القياس ربطا بين شيئين كما جاء في تعريف طه عبد الرحمان من خلال كتابه (في أصول الحوار) قوله : ((أيّا كانت الصيغة التعبيرية التي يرد بها (القياس) ،إن مقارنة أوتشبيها أواستعارة أوغيرها فإنّه يقوم في الربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما)) 23 .

ونصّ أبي البقاء الرندي يحفل بجملة من التشكيلات اللغوية والأنماط البلاغية المحيلة على هذا النوع من الاستدلال ،وهوما نقرأه ،على سبيل التمثيل لا الحصر،في بيت من نونيته :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

فالشاعر هنا حاول تقريب صورة الدين الحنيف ،وهويُترك ويُدنّس ويفتقد أهله الذين يستنصر بهم ،من صورة الفجيعة التي تصيب الهائم في إلفه وشدّة ارتباطه بمن يهيم به ،

ويمكن أن يصبح التمثيل هنا لغة برهانية يستجدي بها الشاعر استجابة المتلقي حين يُفعّل فيه حركة الاستدلال والمقايسة ،على أن تترجم هذه الحركة لغة البيت إلى :

صلة الدين بأهله والهائم سواء	تشبه	صلة الهائم بمن يهيم به	إذن ما أصاب الدين
ممثّل	قياس	ممثّل به	نتيجة

فالحركة الاستدلالية تتيح إمكانية الربط بين الصورتين وإدراجهما ضمن معادلة منطقية واحدة تؤدي بدورها إلى استقراء نتيجة واحدة أيضا . وشبيه بهذه الحركة ما يقع في بيت آخر من استدلال ،حين تتشكّل علاقة قياسية جديدة تطفوإلى سطح النصّ لتشتغل داخل الفضاء الحجاجي القائم على القياس ،وهوقول الشاعر :

يا رُبَّ أمّ وطفل حيل بينهما كـــما تُفرّق أرواح وأبدانُ

إنّ البيت يكشف عن صورة ما من التقريب والمماثلة لا يمكن أن نقف معها عند حدود القراءة البلاغية فحسب ،التي تقول بالتشبيه وأركانه ،بقدر ما يمكن أن نحوّر الصورة إلى منطقها الذي جاءت من أجله خادمة له في سياق ما تعارف عليه النصّ منذ بدايته ،وكذا سياق ما تشكّل عليه الخطاب في مقصده ومقصد صاحبه ،وبالتالي فإنّ قراءة البيت هي شيء من قراءة النصّ وبُعدٌ من أبعاده الوظيفية والدلالية والتركيبية ،حينما نقرأه بالتأكيد في صيغته الآتية :

فراق الأمّ عن الابن يشبه فراق الروح عن البدن إذن فراق الأمّ عن الابن موت

ممثَّل قياس ممثّل به نتيجة

إنّ الربط هنا ،وكذا في البيت السابق ،لا يمكن أن يُقرأ خارج حدود الصورة البلاغية التي نقصد بها عادة إثارة الجانب الفنّي والجمالي لدى المتلقي ،ولكن مع شيء من التجاوز وموضعة البيت الموضع الذي يجب أن يُفهم من منظوره ،يمكن تلقيه حجاجا أوبرهانا بما يستجيب لمنظومة النصّ الاستدلالية والبرهانية التي تُخرجه من حدود الفهم البلاغي القائم على التأثير الانفعالي إلى حدود الفهم الاتّصالي القائم على الحجاج والبرهنة والقياس . ذلك أنّ القصيدة في كلّها اللغوي والدلالي ذات طاقة إيصالية وإبلاغية متمكنة ومقصودة ،عمد الشاعر إلى توظيفها وتحميلها فيّ نصّ ليس يُرجى وراءه إلاّ الاستغـــاثة والاستنصار بتفعيل الاستجابة العقلية الواعية القائمة على البرهنة والحجاج .

مراجــع :

1- الجاحظ : البيان والتبيين ،ج 1 ،تحقيق وشرح عبد السلام هارون ،الطبعة السابعة ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،1998 ،ص 76 .

2 - جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال ،دار غريب للطباعة والنشر ،القاهرة ،2000 ،ص 143 .

3 - محمد العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي ،مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ،الخطابة في القرن الأول نموذجا ،دار الثقافة للنشر والتوزيع ،الدار البيضاء ،1986 ،ص 23 .

4 - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ،ط 1 ،تحقيق عمر الطبّاع ،دار الأرقم للطباعة والنشــــر ،بيروت ،1997 ،ص ص 30 - 31 .

5 - جميل عبد المجيد ،البلاغة والاتصال ،ص 127 .

6 - الحواس مسعودي : البنية الحجاجية في القرآن الكريم (سورة النمل نموذجا) ،مجلة اللغة والأدب ،عدد 12 ،ديسمبر 1997 ،الجزائر ،ص 329 .

7 - عبد القادر بوزيدة : نموذج المقطع البرهاني (أوالحجاجي) ،مجلة اللغة والأدب ،عدد 12 ،ديسمبر 1997 ،جامعة الجزائر ،ص 305 .

8 - فان دايك : علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ترجمة سعيد حسن البحيري ،ط 1،دار القاهرة للكتاب ،مصر ،2001 ،ص 241 .

9 - عبد القادر بوزيدة : نموذج المقطع البرهاني (أوالحجاجي) ،ص 318 .

10 - المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ،ج 1 ،تحقيق مصطفى السقا ،مطبعة فضالة ،المغرب ،1978 ،ص 47 ،50 .

11 - الخفاجي شهاب الدين ،ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا ،ط 1 ،ج 1،تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو،مطبعة البابي الحلبي ،مصر ،1967 ،ص ص 370 . 374

12 - المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق إحسان عباس ،ج 4 ،دار صادر ،بيروت ،1968 ،ص ص487 ،488 .

UNIVERSITE SETIF2

13 - مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ،موضوعاته وفنونه ،دار العلم للملايين ،بيروت ،1979 ،ص ص 548 ،554 .
14 - عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ،ط3 ،جامعة حلب ،سورية ،1978، ص ص308 ،315 .
15 - رضوان الداية : الأدب الأندلسي والمغربي ،جامعة دمشق ،سورية ،1981 ،ص ص 246 ،252 .
16 - كراتشوفسكي : الشعر العربي في الأندلس ،ترجمة منير مرسي ،عالم الكتب،1971 ،ص 55
17 - غارسيه غوميز : الشعر الأندلسي ،ترجمة حسين مؤنس ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،1956 ،ص 104 .
18- جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال ،ص 109 .
19- أرسطوطاليس في الشعر : تحقيق ،محمد شكري عياد ،دار الكتاب العربي القاهرة ،1967 ،ص 209 .
20- جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال ،ص 110
21 - عبد القادر بوزيدة : المرجع المذكور ،ص 306 .
22 - جميل عبد المجيد ،المرجع المذكور ،ص 119 .
23 - طه عبد الرحمان : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ،ط 2 ،المركز الثقافي العربي ،المغرب ،2000،ص 98 .